الطبيعة والعبادة في بلاد كنعان

(الجبال، المشارف، الأشجار، الأحجار، الأنهر وأدوات العبادة)

الخوري جورج كامل*

قد يكون انتصاب الإنسان على قدميه بالمقارنة مع الكائنات الأخرى التي لا تتأمل سوى الأرض سبب تسميته في بلاد كنعان «صفاشمين» Ζοφασημίν، أي «الذي يتأمّل السموات». هذا ما نقله أوسابيوس القيصري (Eusèbe de Césarée) عن فيلون الجبيلي وأورده في كتابه «التهيئة الإنجيلية» (*La Préparation Evangélique*). غير أنَّ الإنسانَ لم يستطع الانسلاخ عن الأرض تمامًا، بالرغم من أنَّ البعض اعتقد أنّ بداية الدين كانت في عبادة الأجرام السماوية[1]. فما تزال الأرض مصدر غذائه وبالتالي حياته، وإليها يعود ليدفن لعلّها تكون رحمًا لولادة جديدة.

إنطلاقًا من هذا الواقع كان لا بدَّ للإنسان في بلادِ كنعان من علاقة مع الطبيعة وصلت أحيانًا إلى حدِّ العبادة.

ويعتبر ول ديورانت في مؤلّفه «قصّة الحضارة» أنّ «أقدم عقيدة دينيّة في آسيا... هي تقديس الأشجار وينابيع الماء والأنهار والجبال»[2].

(*) أستاذ في علم التاريخ

(١) cf. EUSÈBE DE CÉSARÉE, *La préparation évangélique*, livreI, «Sources Chrétiennes», Cerf, Paris, 1974, I, 10, 2; I, 9, 5, 29.

(٢) ول ديورانت، **قصّة الحضارة**، م ١، ج ١، ترجمة زكي نجيب محمود، نشر الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ط ٣، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٠٤ .

فبالنسبة الى الجبال يَذْكُرُ سنخونياتن (εαδχουνιαθωνος)، في الكوسموغونيا (Cosmogonie) الفينيقية الواردة في كتاب أوسابيوس المذكور آنفًا، أربعة جبال أخذت أسماءها من عظماء فينيقيين مؤلَّهين وهي: كاسيوس (Κάσσιος) لبنان (Λίβανος)، انتيلبنان (Αντιλίβανος)، وبراثي (Βραθύ)[1].

كاسيوس هو الاسم اليوناني لـ «خازي» الذي يرد في نصوص أوغاريت المقطعية، وهو الجبل الأقرع الواقع شمال غرب سوريا، تُطْلِقُ عليه النصوص الأبجديّة اسم «ص ف ن» (صافون)، وقد اعتُبِرَ في الميثولوجيا مكان سكنى الإله بعل المعروف بـ «بعل صافون». أما معنى الاسم (صافون) فيُرَجَّح أنه مشتقّ من جذر ⊐ֵ⊐ Π الذي يعني «تطلّع، أشرف، لاحظ، أمعن النظر». وقد حافظت اللغة اللبنانية المحكيّة على هذا الجذر في فعل «صفن» الذي يعني «أمعن النظر، تأمل». واللافت للنظر أنّ لفظة شمرا التي تدخل في تركيب اسم الموقع الأثري «رأس شمرا»، حيث اكتُشِفَتْ مدينة أوغاريت حوالي ٤٠ كلم إلى جنوب الجبل المذكور، يعني «المراقبة والحراسة». ويمكن لجذر ⊐ֵ⊐ Π نفسه أن يعني، باللغة العبرية، «خبأ، غطّى، كسا». فهو الجبل الذي تغطّي هامته الغيوم، ممّا يضفي عليه هالة قدسية. وقد تغالى أبناء أوغاريت في تقديس الجبل حتّى أصبح اسمه يرد في لوائح أسماء الآلهة وتقدّم له الأضاحي[2]. كما انّ الإله بعل، في النص الميثولوجي V AB,C,(CTA3),26 يدعو هذا الموقع، الذي يعتبره خاصته، باسم «إل.ص ف ن»، وهي عبارة قد تعني «إله صافون» لولا ورودها في هذا المضمون. لهذا

(١) EUSÈBE, *op.cit*,I, 10, 9.

(٢) cf. HERDNER, *Corpus des tablettes en cunéiformes alphabétiques découvertes à Ras Shamra-Ugarit 1929-1939*, Geuthner, Paris, 1963, 35: 34, 42 et 36: 7;
CAQUOT, SZNYCER et HERDNER, *Textes ougaritiques*, tome I, Cerf, Paris, 1974,p. 81;
TARRAGON, *Le culte à Ugarit*, Coll. «Cahiers de la Revue Biblique», 19, J. Gabalda, 1980, p. 152;
Javier TEIXIDOR, «Bulletin d'épigraphie sémitique», in *Syria*, 51, 1973, 51.

يترجمها واضعو كتاب *Textes ougaritiques* بـ «الإله صافون» (le divin Sapon)[1].

ويَعْتَبِرُ تارّاغون (TARRAGON) أنّ عبارة «د ب ح. ص ف ن»، المدرجة على رأس إحدى لوحات أوغاريت الطقسية، تعني «ذبيحة (الإله) صافون»، إذا ما قورِنَت بعبارة «د ب ح، ب ع ل» التي تعني «ذبيحة (الإله) بعل»[2].

نجد أيضًا في النص الكنعاني KAI, 49: 18، المكتشف في أبيدوس مصر والذي يعود إلى ما بين القرنين الخامس والثالث ق.م. ، اسم العلم 𐤏𐤁𐤃 𐤑𐤐𐤍 (عبد صافول» والأصحّ «عبد صافون»). وفي نص واسطا الموضوع بالحرف اليوناني (KAI 174: 3/4) ΑΦΕΣΑΦΟΥΝ الذي يعني أيضاً «عبد صافون»[3]. ونحن نعلمُ أنّ أسماء الأعلام المركّبة التي يتألف الجزء الأول منها من كلمة 𐤏𐤁𐤃 (عبد) تحوي في الجزء الثاني اسم إله.

وكأنّ التأليه في نظرة الكنعانيين كان نوعًا من تسامٍ في التقديس. هذا ما يؤكّده فيلون الجبيلي، في كلامه على تأليه الفينيقيين لعظمائهم، وحتّى لأماكن ورموز عبادتهم[4].

أو أنّ صافون، بحسب رأي جافيه تكسيدور (Javier TEIXIDOR) كان اسمًا لإله ما، قبل أن يطلق على الجبل الأقرع[5]، ممّا يتطابق مع ما ذكره

---

(١) «ب ث ك. غ ر ي. إلـ ص ف ن». أنظر النص في: Charles. VIROLLEAUD, *Syria*, 18, 1937, p. 257. et HERDNER, CTA, 3.
Cf. la traduction in CAQUOT, SZNYCER et HERDNER, *op. cit p.* 82 et 166.
أما الترجمة إلى العربية فهي على الشكل التالي: «في وسط حصن، الإله صافون».

(٢) TARRAGON, *op. cit.*, p. 168

(٣) تقع واسطا حوالى ٧ كلم جنوب عدلون، لبنان. ويعود النص المذكور إلى سنة ١٩ ق. م.
Cf. DONNER-RÖLLIG, *Kanaanäische und aramäische Inschriften*, II, Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1962, p. 161.

(٤) EUSÈBE, *op. cit*, I, 9, 29.

(٥) J. TEIXIDOR, Bull., *Syria*, 50, 1973, p. 62, p. 411.

سنخونياتن وأورده أوسابيوس في التهيئة الإنجيلية (I,10,9).

أمّا جبل بْراثي (Βραθύ) فَيُرادِف حرمون[1] الذي يعني «المقدّس»، حيث كانت تقدّم على قممه وسفوحه الأضاحي لـ «بعل حرمون»[2] و«بعل شمين»[3].

يَرْتَفِعُ جبل صافون في القسم الشمالي من بلاد كنعان ـ ممّا جعل اللّغة العبرية تدلّ بكلمة צָפוֹן إلى جهة الشمال[4] ـ وجبل حرمون في القسم الجنوبي.

أما سلسلتا جبال لبنان وانتيلبنان اللتان يفصل بينهما سهل البقاع، فتقعان في قلب البلاد. وقد يعني «لبنان» الأبيض، إن كان اشتقاقه من الجذر الكنعاني לבן (لبن)، أو البخور، לבונה (لبنة)، أو انه اسم مركّب من לב (لب) و אלן أو לאן (ألن أو أنن)، ليعني القلب الإلهي.

فعلى إحدى قممه كانت مغارة أفقا محجّ المؤمنين الذين كانوا يحتفلون، في التاريخ نفسه من كل عام، بمقتل أدونيس، بعل لبنان، ودفنه في المغارة المذكورة، وبقيامته وصعوده إلى السماء ظافرًا، كما يشهد على ذلك لوقيانوس السامو ساطي، في كتابه «الإلاهة السورية»[5].

ويضيف كاكو (CAQUOT) إلى لائحة سنخونياتن، في مقالته عن ديانة الساميين الغربيين، جبلَي طابور والكرمل حيث كانت تجري أيضًا عبادة بعل. أمّا اسم الكرمل، كما يقول تاتيتس (TACITE)، فيُشير، في الوقت نفسه، إلى الجبل والإله[6].

---

(١) Charles VIROLLEAUD, *Syria*, 25, 1946 - 1948, p. 160.

(٢) أنظر اسم «بعل حرمون» في فصلة ٣ ٣ و ١ أخبار ٥: ٢٣.

(٣) Javier TEIXIDOR, Bull. in *Syria*, 45, 1968, 24, p. 359.

(٤) أنظر مزمور ٨٩: ١٣ وأشيا ١٤: ١٣.

(٥) LUCIEN DE SAMOSATE, *La déesse syrienne*, traduction nouvelle avec prolégomènes et notes par Mario MEUNIER, Janick, Paris, 1947, VI - IX ـ.

(٦) CAQUOT, *Histoire des religions*, tome I, «Enc.de la Pléiade», Gallimard, Paris, 1970, p. 327.

وَيَعتَقِدُ تارّاغون انّ الثنائي «ث ك م ن و ش ن م» الوارد في بعض لوائح أوغاريت الطقسية والتقويّة قد يدلّ على جبلين مؤلّهين من أصل كاشي[1].

غير أنّ الكلمة التي قرأها تاراغون «ث ك م ن»، قد تكون «ث ر م ن»، بقلب حرف الكاف 𐎊 راءً 𐎓، وهي تنطبق على المنطقة (أو الجبل) التي كان نقمد ملك أوغاريت ـ بالإضافة إلى منطقة «ي ر ج ب» ـ حاكماً عليها[2].

وقد تعني جبل حرمون الذي دعي في تثنية ٣: ٩ عن لسان الصيدونيين 𐎚𐎗𐎍 (سيريون)، أمّا في المزمور ٢٩: ٦، كما في النصّ الميثولوجي الأوغاريتي II AB, VI, 18-21 فيوازي لبنان (𐎍𐎗𐎁). ويبدو أنّ شعراء أوغاريت كانوا يعتبرون لبنان منطقة تتخطّى «الجبل»، فتشمل أيضًا حرمون، «إذ لم تسبق اسم «ل ب ن ن» لفظة «غ ر» (جبل) كما جرت العادة بالنسبة لبقية الجبال المذكورة في النصوص[3]، ممّا يتطابق مع تحديد لبنان الوارد في يشوع ١٣: ٥ وقضاة ٣: ٣.

إلاّ انّ السؤال يكمن في سبب تقديس الجبال والمرتفعات الذي وصل أحيانًا إلى حدّ التأليه.

يبدو أنّ الجبل يرمز إلى السامي والارتقاء، يرتفع عمّا هُو عالمي ليلامس المقدّس. إنّه نقطة اتّصال بين السماء والأرض وتشكّل قمّته المكلّلة بالغيوم مقامًا مقدّسًا لإله العاصفة، راكب السحب، تشوب ـ بعل ـ هدد ـ رمّون... وتظهر لوحات أوغاريت الميثولوجيّة والأسطوريّة أنّ إله العاصفة كان يشكّلُ الوسيطَ والشفيعَ بين الإله الأب والمؤمنين.

والحجّ إلى قمّة جبل مقدّس يخلق في المؤمن إحساسًا بالانسلاخ عن العالم وتحرّرًا من طغيان المجتمع، كأنّه يشارك الإله الذي، عن قمّة الجبل، يرتقي إلى سدّة

---

(١) TARRAGON, *op. cit.*, p. 170.

(٢) IAB, VI, 57; CTA 6, 57 «ا د ن. ي ر ج ب. ب ع ل. ث ر م ن»

(٣) Cf. Ch. VIROLLEAUD, «Les Réphaïm», in *Syria*, 22, 1941, p.27 – 1.

الإله الأعظم، سيّد السماء. هذا ما كانت تمثّله جبال صافون، لبنان، انتيلبنان، حرمون بالنسبة إلى الكنعانيّ، وجبل صهيون بالنسبة إلى اليهوديّ حيث سيحتشد الأمم لقضاء يهوه[1]، الذي سيتعالى «على جميع الجبال العالية، وجميع التلال المرتفعة» (أش ٢: ١٤)، والجلجلة حيث «يرتفع» الصليب بالنسبة إلى المسيحي[2].

لهذا أقامت شعوب بلاد كنعان أماكن عبادتها على المشارف (المرتفعات)، على مثال ميشع ملك موآب (منتصف القرن التاسع ق.م.)[3] الذي يذكر، في نقش يخبر فيه قصّة صراعه مع بني إسرائيل يعود إلى العام ٨٤٠ ق.م.، أنّه أقام المشارف (בָּמָה)، أي بنى المعابد، التي كانت قد خربت، على المرتفعات[4].

ويُخبرُنا الكتاب المقدس أنّ سليمان ملك إسرائيل (٩٧٢ تقريباً - ٩٣٣ ق.م.) بنى أيضاً مشرفًا (בָּמָה) لكموش إله موآب، في الجبل الذي يقع شرقي أورشليم ولمولك إله بني عمّون[5]. إلاّ انّ يوشيا ملك يهوذا (٦٤٠ - ٦٠٩ ق.م.) نزع حرمة هذه المشارف وحطّم الأنصاب والأوتاد المقدّسة التي كانت تكرّم فيها[6]. فقد كان بنو اسرائيل يمارسون، على المشارف، عبادات وطقوساً حرّمنيا ملوكهم وأنبياؤهم[7] ترجع في قِدمها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، على مثال مشرف «مجدّو»[8]، و «بيت - ايل» حيث اكتُشِفَتْ آثار دماء حيوانية على أرض المعبد تعود إلى ما قبل عام ٢٥٠٠ ق.م. على الأقل[9].

(١) أنظر اشعيا ٢: ١ت وميخا ٤: ١ت؛
Cf. FENASSE, «Baalisme et Yahvisme», in *Bible et Terre Sainte*, 69, déc. 1964, p. 4.

(٢) لقد عنى لوقا الانجيلي في ٩: ٥١ بعبارة «يرتفع»، صعود يسوع إلى أورشليم وارتفاعه على الصليب ونهوضه من القبر وصعوده إلى السماء.

(٣) DONNER-RÖLLIG, KAI, II, S. 170.

(٤) *Ibid.*, I, 181: 3, 27.

(٥) ١ ملوك ١١: ٧ .

(٦) ٢ ملوك ٢٣: ١٣ - ١٤ .

(٧) أنظر ارميا ٧: ٣٠ - ٣١؛ أخبار ٢٦: ٣٠؛ ١ ملوك ١٤: ٢٣؛ ٢ ملوك ١٨: ١ - ٤ .

(٨) Cf. BOBICHON, «Les hauts lieux», in *Bible et Terre Sainte*, 47, 1962, p. 6.

(٩) KELSO, « Béthel, la ville au faux sanctuaire», *Ibid.*, p. 8.

لقد كان معبد المشرف يحوي حجرًا أو مسلّةً ترمز إلى الإله الذكر دعاها الكتاب المقدّس מַצֵּבָה وجذعًا خشبيًا مقدّسًا يرمز إلى الإلاهة الأنثى، دعاه אֲשֵׁרָה [1]. ولا أظنّ أن ارميا النبي كان كلامه مجازًا، حين ندّد بـ«القائلين للخشب: أنت أبي وللحجر: أنت ولدتني» (٢: ٢٧). فهو يلمّح إلى طقوس الفسق التي كانت تجري في المعبد والتي يذكرها أشعيا (٥٧: ٥ - ٩)، حيث إنّ الأطفال المولودين نتيجة هذه الممارسات في هذه الأماكن يعتبرون من نسل إلهي [2].

والكلمة التي استعملها إرميا للدلالة إلى الخشب، עֵץ ، هي نفسها تستعمل في كلّ من اللغتين العبريّة والأوغاريتية (الكنعانية) لتعني أيضًا شجرة.

وقد يكون اسم Ὀσώος (أوسووس) الذي يذكر سنخونياتن أنّه أوّل من جرّد شجرة من أغصانها وغامر بها في البحر [3] مشتقّ من هذه الكلمة، فكان بعد موته، أن كرّس له المؤمنون أوتادًا وأنصابًا وأقاموا له ولأمثاله أعيادًا سنويّة [4].

لقد كانت بعض العبادات الكنعانية تقام عادة تحت شجرة خضراء [5]. ولغاية اليوم ما نزال نجد بقرب كلّ معبد تقريبًا شجرة ظليلة. وما يزال البعض يمارس عادات كنعانية قديمة ترسّبت في معتقداتنا وممارساتنا اليوم، على سبيل المثال، تعليق الثياب والرقع على أغصان شجرة قديمة بهدف اخصاب العاقر، أمام مزار في أفقا لمريم العذراء يدعوها ابناء البلدة «سيده زهره»، وقد بُني المزار قرب بقايا معبد أفروديت (ڤينوس، عشتروت، الزهره)، ممّا يربط الشجرة بالإلاهة المكرّمة في المقام [6].

---

(١) أنظر خروج ٣٤: ٢٤ ؛ ٣٤: ١٣ ؛ تثنية ١٦: ٢١ - ٢٢؛ ١ ملوك ١٤: ١٥ .

(٢) أنظر جيمس فريزر، أدونيس أو تموز، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، الطبعة الثالثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢، ص ٩٥ - ٩٨ .

(٣) EUSÈBE, *op. cit.*, I, 10, 10.

(٤) Ibid., I, 10, 11.

(٥) أنظر تثنية ١٢: ٢ و ٢ ملوك ١٧: ١٠ .

(٦) Cf. LUCIEN DE SAMOSATE, *op. cit.*, P. 51 - 53 + 2.

وتُخبرنا الميثولوجيا اليونانية، أنّ الإله أدونيس، ولد من شجرة المرّ والطيب التي كانت فيما مضى ـ قبل أن يحوّلها الإله زوش أو الإلاهة عشتروت إلى ما هي عليه ـ امرأة بهيّة الطلعة، تدعى ميره (Myrrha)[1].

كما أنّ اسم السنديانة السامي אלן (ألن)[2] قد يعني «الإلهي» أو «المؤلّه».

أما الهدف من النُصب الحجري (מצבה) فكان لتخليد ذكرى إنسانٍ عظيم، قدّيس، أو ميت عزيز، كما فعل ابشالوم الذي أقام لنفسه نصبًا إذ لم يكن له ولدٌ يخلّده[3]، أو تذكارًا لتدخّل إلهي، على مثال ما جرى ليعقوب حين تراءى له יהוה בית־אל (ايل القدير) في لوز التي في أرض كنعان، فأقام نصبًا من حجر وسكب عليه سكيبًا وصبّ عليه زيتًا وسمّى ذلك المكان (بيت ـ ايل)[4]، أو رمزًا لحضور إلهي كما في المعاهدة التي تمّت بين يعقوب ولابان[5]. نجد مثالاً لهذه الأنصاب في معبد رشف في جبيل[6].

إلاّ أنّ هذا الحضور الإلهي الذي نجده في المعابد إلى جانب الوتد المقدّس (אשרה): كان رمزاً جنسياً يدلّ على الذكورة. هذا ما عناه ارميا (٢: ٢٧) وما أوضحه حزقيال (١٦: ١٧).

وقد عثر المنقّبون الإنكليز ـ بحسب ما يخبر جيمس فريزر ـ في «غزر» المدينة الكنعانية القديمة، على «بقايا هيكل ما زالت الحجارة المقدّسة والأعمدة والمسلاّت (مناسيوث) قائمة فيه في صف، وبين اثنين منهما حجر كبير مثقوب في الوسط، حميل الصنع، لعلّه كان يحوي الجذع أو العمود المقدّس (آشيراه).

(١) أنظر كمبل السنتي. «أدونيس»، في دائرة المعارف، ٨، ١٩، ص ٢٨٠.

(٢) في العبرية אלה أو אילה في الآرامية אלהא

(٣) أنظر ٢ صموئيل ١٨: ١٨.

(٤) تكوين ٢٨: ١١ ـ ٢٢؛ ٣٥: ١١ ـ ١٥؛ ٤٨: ٣.

(٥) تكوين ٣١: ٤٣ ـ ٥٣.

(٦) Maurice DUNAND, *Byblos*, 3ème édition, Librairie Adrien - Maisonneuve, Beyrouth. 1973, p. 50 à 53.

وقد وجد في التراب الذي تراكم على أرض الهيكل عدد كبير من تماثيل صغيرة للذكر، منحوتة من حجر كلسي طري، كما اكتشفت ألواح من الطين فيها صور ناتئة للإلاهة الأم، في مختلف طبقات التراب المتراكم. ولا شك أنّ هذه كانت تقدمات المتعبدين إلى الإلهَين الذكر والانثى اللذين كان يمثلهما الجذع المقدّس والحجارة المقدسة»[1].

ويبدو أنّ رسالة بعل إلى شقيقته وعشيقته عنت في الميثولوجيا الأوغاريتية V AB, C (CTA3), 11[e] - 28 كانت تهدف إلى دعوتها لإقامة طقوس سكب سوائل السلامة وممارسة البغاء المقدّس وذلك بقوله لها: «أنتجي في الأرض طعامًا (؟)، ابذري في التراب حبًا جنسيًا، اسكبي سلامًا في كبد الأرض واكثري من الحبّ في كبد الحقول» (V AB, C, 11 - 14). ويتابع ملمّحاً إلى طقوس البغاء المقدّس التي كانت تجري في المعابد حيث النصب الحجري (𐎁𐎍𐎐) وجذع الشجرة أو الوتد المقدس (𐎂𐎔𐎓) بقوله: «أبكري، أسرعي، حتّي الخطى ولتسرع نحوي قدماكِ، فعندي كلامًا أكلّمك به وأكرره عليك: خبر الشجرة وهمس الحجر، أنين (ت أ ن ت) السماوات مع الأرض، والغمر مع الكواكب. سأظهر البرق الذي لا تعرفه السماوات وكلامًا (رعدًا) لا يدركه الناس ولا تفهمه أمم الأرض. تعالي وأنا أكشفه لك في وسط جبلي، إيل - صافون، في المقدس، في جبل ميراثي، في النعيم، على مشرف النصر» (V AB. C, 15 - 28)[2].

لقد ذكر بعل في رسالته ثلاثة أزواج، الأول: هو الزوج الذي نجده في المعبد ويتألّف من «ع ص» (الشجرة، الجذع أو الخشب) و «أ ب ن» (الحجر)، وقد تجلّت علاقتهما بكلام وهمس. وهما الصورة الأرضية الرمزية لعلاقة أقدم وأعمق هي زواج (ت أ ن ت) السماوات بالأرض والغمر بالكواكب. فالكلمة العبرية 𐎍𐎐𐎓 المرادفة للّفظة الأوغاريتية «ت أ ن ت»، بالإضافة إلى أنّها تأتي بمعنى البكاء والأنين والتنهّد، تعني أيضًا موسم التساقد، أو تزاوج الحيوانات. يدعو بعل حبيبته لتسرع فتمارس معه هذا الطقس الجنسي على مشرف مقدّس

(١) فريزر، المرجع المذكور، ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) راجع النص الأوغاريتي في: HERDNER, CTA, Fig.9. N° 5 (VAB), C, 11 - 28.

سبق الكلام عليه، هو جبل صافون الذي يعتبره إلهًا، حيث تلتقي السماء بالأرض وبعل بعنت ويتمّ بينهما همس ووصال، يتجلّى برعد وبرق ومطر مخصب، يُخرج من الأرض طعامًا ويضع فيها سلامًا. وكأنّ خصب الإلاهة عنت مرتبط بخصب الأرض.

وارتفع تكريم النصب المقدس، الذي أصبح يدعى «بيت ـ ايل» بمعنى انّه رمز لحضور الإله، إلى درجة التأليه. إذ يعتبره سنخونياتن إلهًا وليس مجرّد نصب حجري. فهو أحد الأبناء الأربعة لأورانوس (السماء) بعد زواجه من غايه (الأرض)[1].

نجد في جزيرة الفيلة في مصر، إبّان عهد الفرس، ذكراً لـ «بيتيل» تحت شكل בתאל ואשמבית ואחרמבית، وفي أنطاكية في عام ٢٢٤ للميلاد ذكرًا لـ «الاسم» (Nom)، «اسم بيتيل» (Nom de Bétyle)، و«الأسد» (Lion)، «آلهة الأجداد» (dieux des ancêtres)[2].

ثمّ انّ عبارة سفر التكوين (٣١: ١٣) « אנכי האל בית-אל » التي تترجم حرفيًا على الشكل التالي: «أنا الإله بيت ـ إيل»، تجعلنا نعتقد أنّه في المقام الذي يدّعي الكتاب المقدّس انّ يعقوب كرّسه على اسم بيت ـ ايل كانت تتمّ عبادة لإله يحمل الاسم نفسه. هذا ما يلمح إليه ارميا، بقوله: «فيخجل موآب من كموش (الإله كموش)، كما خجل بيت اسرائيل من بيت ايل الذي اتّكلوا عليه» (٤٨: ١٣). وعاموس حين قال: «لأنّه هكذا قال يهوه لبيت اسرائيل: أطلبوني فتحيوا، ولا تطلبوا بيت ايل» (٥: ٤ ـ ٥). وقد كرّم العرب في «الجاهلية» بعض أحجار دعاها الإغريق والرومان «بيتيلي».

لا شكّ انّ الساميين كرّموا بعض الأنصاب والحجارة المكرّسة، غير أنّهم لم يعبدوها على أساس أنّها حجارة، بل لكونها تعلن حضورًا إلهيًا[3]. إنها بيت

---

(١) EUSÈBE, *op. cit.*, I, 10, 16.

(٢) J. TEIXIDOR, Bull., *Syria*. 1969, 60.

(٣) Cf. Mircea ELIADE, *Traité d'histoire des religions*,P.B.P.,312, Paris, 1979, p. 198.

الإله، حيث باسمه تقام مراسم وطقوس تجعل حضوره واقعًا يتجلّى من خلال الرموز الماديّة.

لهذا، ليس من المستبعد أيضًا تشخيص وتأليه حتّى أدوات العبادة، كالكنّارة (ك ن ر) التي ترد في إحدى لوائح التقادم الليتورجية في أوغاريت كاسم إلهي (RS 24. 643)[1].

أمّا الأنهار فقد حمل بعضها اسماء آلهة، كنهر أدونيس الذي يدعى اليوم ابراهيم، والأوّلي (Iolaos) وهو اسم اشمون إله صيدا، والعاصي تيفون، الذي قد يدلّ على «يم ـ ثفط ـ نهر» الذي تغلّب عليه بعل في الميثولوجيا الأوغاريتية، والليطاني (ل ت ن) أو 𐎍𐎕𐎍 ، الوحش الأسطوري الرهيب الذي، بحسب نصوص أوغاريت ينتصر عليه بعل، وبحسب الكتاب المقدّس يغلبه يهوه. كما أنّه الإبلائيون (سكان مملكة ابلا) في الألف الثالث ق.م. نهرَي الفرات والبليخ، فدعوا الأوّل «بارادو مادو» أي البَرَد الكثير والثاني «باليها»[2].

حتّى البحر، الذي تعتبره الثقافات السامية مقرّ التنانين والحيتان والوحوش الشريرة، عُبد في أوغاريت وقدّمت له القرابين[3].

وقد تغلغل المقدّس (le sacré) حتّى أعماق الأرض ووصل إلى «أمير الجحيم»، «م ت» (الموت)، الذي دعي في نصوص أوغاريت الميثولوجية «ب ن إ ل م» (ابن الآلهة) و«ي دد. إ ل» (I* AB, I (CTAS): 7, 8) (حبيب الله). بالرغم من اننا لا نجد له ذكرًا في لوائح تقدمات القرابين.

هذا لأن السماء الأب ـ أو الشمس التي تمثّله ـ قد تزوّج الأرض، وكل ما

(١) Ch. VIROLLEAUD, «Les nouveaux textes mythologiques et liturgiques de Ras Shamra», in *Ugaritica*, V, 1968, p. 580; TARRAGON, *op. cit.*, p.159.

(٢) G. PETTINATO, *Ebla un impero inciso nell'Argilla*, Arnoldo Mondadori, Milano, 1979, p. 268.

(٣) Cf. Les tablettes: RS 24.643, 9[d], in *Ugaritica*, V, p.580; HERDNER, CTA 34 (UT1), 13; CTA 36 (UT9), 6.

تمثـه الآلهة يتألّه. فاللائحة الليتورجية RS 24. 264 + 280 الموضوعة في أوغاريت لتكريم الآلهة تذكر الثنائي «أرض و ش.م م» (الأرض والسماوات) و«ص ف ن» و«ف د ر ي» التي تحمل في النصوص الميثولوجية لقب «ب ت. أ ر» أي ابنة النور، وفي النهاية «غ ر م و[ع م ق ت]» (الجبال والأودية)[1].

وفي المعاهدة التي تمّت سنة ٦٧٥ ق.م. بين بعل ملك صور وأسرحدون، نقرأ اسماء الآلهة التي جعلت كافلة للاتفاق، وتبدو، باستثناء ملقرت وعشتروت إلهَي صور واشمون إله صيدا، مرتبطة باسماء الأماكن وعناصر الطبيعة، وهي على التوالي: بيت ايلي، عنت بيت ايلي، بعل سامين (بعل شميم ربّ السماوات)، بعل مالاجي (ربّ البحّارة) وبعل ساپوني (ربّ (جبل) صافون)[2]. وكأنّ الكنعاني، «المستقرّ»، كان يلوذ إلى التأمل، «بصفن»، بعناصر الطبيعة، فيعتبر نفسه محاطاً بالألوهة التي تتجلّى في كلّ ما يحيط به من أسرار. لم يكن، في الواقع، يعبد عناصر الطبيعة أو الجبال والمرتفعات والأنهار والأنصاب والتماثيل والأوتاد المقدّسة... إنّه، من خلالها، يحاول إدراك ذاك السرّ الذي يجعل كلّ شيء حيّا. فالمقامات المتعدّدة تذكّره بعدّة وظائف إلهيّة ربّما تحوّلت مع الوقت إلى عدد من الآلهة المعبودة، عندما نسي المؤمنون الاسم الحقيقي للإله واحتفظت ذاكرتهم بموقع مقامه أو احدى صفاته أو قدراته الإلهية. «فإن عبادة شيء كوني أو أرضي لذاته لا وجود لها أبدًا في تاريخ الأديان»[3].

من هذا المنطلق يردّ مكسيموس الصوري، تلميذ جمبليك العنجري من مدرسة الأفلاطونية الحديثة على استهزاء المسيحيين، قائلاً: «الله الأب الذي صوّر كلّ ما هو كائن أقدم من الشمس ومن السماء، وأعظم من الزمان، ومن الخلود ومن مجرى الكينونة، لا يستطيع أن يسميه مشترع أو أن ينطق به صوت، أو أن

(١) TARRAGON, *op. cit.*, p.157.

(٢) Cf. Sabatino MOSCATI, *L'épopée des Phéniciens*, Fayard, Paris, 1971, p.64.

(٣) هيرفه روشو، الديانات، ترجمة منزي شماس، ماذا أعرف، المنشورات العربية، جونيه ١٩٧٣، ص ٤٢.

تراه عين، لكننا نحن لعجزنا عن إدراك جوهره نستعين بالأصوات، والأسماء، والصور، وبالذهب المطروق، والعاج، والفضة، وبالنبات، والأنهار، وبالسيول، وقلل الجبال في إشباع حنيننا إلى معرفته. ونداري عجزنا بأن ننحت من طبيعته أسماء لكل ما هو جميل في هذا العالم... فإذا ما تاق يوناني لأن يتذكر الله حين يبصرُ تحفة فنية من عمل فدياس أو تاقت نفس مصري لهذه الذكرى فعبد الحيوان، أو مجّد غيرهما ذكراه بعبادة نهر أو نار، فإن اختلافهم عني لا يغضبني. وكلّ ما أطلبه منهم أن يلاحظوا وأن يذكروا، وأن يحبّوا»[1].

(١) ول ديورانت، المرجع المذكور، م ٤، ج ١، ص ٢٤.

صدر عن دار المشرق